الغزالي أعجب شخصية في تاريخ الإسلام

للأستاذ قدري حافظ طوقان

الغزالي حجة الإسلام ورين الدين ومن أكبر أعلام الفكر الذين يعتز بهم الإسلام ويفخر. ظهر في القرن الخامس للهجرة في عصر سادت فيه آراء الشك والاختلافات وعمت أوساطه الغوضى في المعتقدات والمذاهب. وكان لهذا أثر على حياة الغزالي كما كان لنشأته الصوفية والروحية أثر كبير عليها. فنزع إلى الانتصار للدين وسلك في ذلك مسلكا جديداً لم يسلكه أحد من قبله، حتى قال (ربنان): «. إن الغزالي هو الوحيد بين الفلاسفة المسلمين الذي انتهج لنفسه طريقاً خاصا في التفكير ...»

واجه الغزالي في أول حياته مذاهب مختلفة من كلام وباطنية وفلسفة وتصوف وساورته نزعات التشكيك والتحليل المنطق، واحتار في أمره ولم يدر أيها يتبع. وقد لجأ إلى دراسة هذه المذاهب واختبار حسنا تها وسيئاتها رائده في ذلك الوصول إلى الحقيقة التي تروي النفس وتنير العقل، فخاض بحار التفكير وتوغل في كل مظلمة واقتحم كل مشكلة ووربطة، وتحص الفرق والعقائد ليميز بين محق ومبطل ومقتن ومبتدع. درس الفلسفة ليقف على كنهها، ودرس علم الكلام ليطلع على غايات المتكلمين ومحاولاتهم، ودرس الصوفية ليعثر على سرها. وكان في دراساته واسع الصدر سما بتفكيره وحلق، وقد أدرك أنه لا يمكن المحقق أو الباحث عن الحقيقة التمطش لها أن يستوعب سبلها بغير الجمع بين سائر مظاهرها مما يقال للشيء أو عليه

إن هذا الطريق الذي سار عليه الغزالي يدل على قوة شخصيته وعلى إيمانه بنفسه وثقته بمواهبه ومزاياه مما ساعده في الانتصار على خصومه وعلى الفلسفة.

والغزالي يمتاز على غيره من علماء الكلام في كونه قرب الدين من العقل الاعتيادي وكشف دقائقه أمام أذهان العامة، في حين أن الكثيرين من الفقهاء، ورجال الدين في عصره والعصور التي سبقته ساروا في تفكيرهم على أساس من الغموض وفي بحار من المعميات والأسرار، وذلك محافظة على شخصياتهم من بروزها على حقيقتها ضعيفة واهية، وخشية من جمودهم أن يتلاشى إذا وضحت الأمور وزال الغموض.

والغزالي حين قرب الدين لم ينزل به، بل استطاع بما أوتي من قوة المعارضة وصفاء التفكير وسعة الاطلاع؛ أن يرفع الإيمان من «حضيض السذاجة إلى قوة التفكير العالي مما جعل المفكرين في الشرق والغرب يرون فيه المثل الأعلى للتفكير الإلهي والنور المبدد لروح الشك والتشاؤم ..» وقد قال سارطون في هذا الشأن: «إن أثر الغزالي في العلم الإلهي أعظم من أثر القديس توما ..»

***

درس الغزالي الفلسفة «... ولم يكن الذي حمله على دراستها مجرد شغف بالعلم بل كان يتطلع إلى مخرج من الشكوك التي كان يثيرها عقله ...» ليطمئن قلبه ويتذوق الحقيقة العليا. وخرج من دراساته هذه وسياحاته وتنقلاته بكتب قيمة نفيسة أهمها كتاب تهافت الفلاسفة، وهو عمل عظيم لا يخلو من قيمة فلسفية إذ هو «ثمرة دراسة محكمة وتفكير طويل، يبين المسائل الكبرى التي كانت محل خلاف بين الدين والفلسفة ...» مما يدل على طول نظر في الفلسفة ودراسة وافية لها. وقد بلغ فيه أقصى حدود الشك فسبق زعيم الشكيين (داويد هيوم) بسبعة قرون في الرد على نظرية العلة والمعلول

لقد وصل الغزالى من دراساته الفلسفية وغيرها إلى ما وصل إليه (كانت) فيما بعد ، من أن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً الغطاء عن جميع المعضلات ، وإنه لابد من الرجوع إلى القلب وهو الذى يستطيع أن يدرك الحقائق الإلهية بالذوق والكشف وذلك بعد تصفية النفس بالعبادات والرياضات الصوفية . وهو بذلك حاول أن يخضع العلم والعقل للوحى والدين لكى يصل إلى الحقيقة العليا وعلى الرغم من محاولاته إخضاع العلم والعقل للوحى والدين كان يمجد العقل ويرى فيه (كما جاء فى كتاب إحياء علوم الدين) منبع العلم ومطلعه وأساسه وإن العلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس وقد أتى بجملة أحاديث نبوية تشير إلى مقام العقل وشرفه .

والغزالى لم يأخذ بأقوال فلاسفة اليونان ، بل كان يعرضها ويسلط عليها العقل فيخرج بنقد صائب ورأى عبقرى . لقد اعترض على قول (جالينوس) اليونانى « ... إن الشمس لا تقبل الانعدام » ويستدل على ذلك بأن الارصاد لم تدل على أى تبدل فى حرارة الشمس أو حجمها . وهنا يأخذ الغزالى هذا القول ، ويرى فيه خطأ وخروجا عن الصواب . فأرصاد القدماء ليست إلا على التقريب ، والشمس قد تخف حرارتها ، وينقص حجمها دون أن يلاحظ الناس ذلك فى مدة قصيرة ، وعلى ذلك يخرج الغزالى برأى صحيح هو ماتوصل علماء الفلك الحديث . فلقد توصل العلم إلى أن الشمس تحتضر على حد تعبير السير جيمز جينز وأنها فى تناقص . وقد حسبوا ما ينقص منها (على الرغم من القوى والذخيرة التى تصل إليها بعوامل شتى) فوجدوا أنها تفقد مادتها عن طريق الاشعاع (٣٦٠) ألف مليون طن فى كل يوم .

وللغزالى آراء تدل على حسن إيمانه بالبشرية وصفاء نظره إلى الخليقة الانسانية وهو لم يأخذ بأقوال الذين يجعلون الشر مركباً فى طبع الانسان ، بل أنه أحسن اعتقاده فى النشأة فجعله خيراً . ويرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شىء فالخير يكتسب بالتربية وكذلك الشر . وفى رأيه أن الانسان لا يميل بفطرته إلى إحدى الجهتين وإنما هو يسعد ويشقى تبعاً لعوامل عديدة تتعلق بالأبوين والمحيط غير حاسب أى حساب للوراثة وما إليها

وأورد الغزالى فى كتاب الاحياء قواعد ومبادىء ليسير عليها المعلم والمتعلم . ويجد المتصفح لها أنها سامية الغايات فيها تحليل نفسى دقيق يدل على النضج وخصب القريحة وعلى معرفته التامة بنفسية المعلم والمتعلم . ويرى فيها المؤرخون أنها لا تقل عن النظريات الحديثة فى علم التربية . وكذلك وضع الغزالى مبادىء جليلة فى آداب المناظرة هى فى الواقع الدستور الذى يجب أن يسلكه المتناظرون وأصحاب الجدل والبحث . وفى رأى الغزالى أن الخروج على هذه الآداب قد أشاع الخصومات وأنشأ المداوات لأن الغاية من الجدل والمناظرة لم تكن فى الحقيقة كما يجب أن يكون ، بل كانت التغلب على الخصم والتفوق على المناظر

والغزالى لم يذهب مذهب المعتزلة فى أن العمل يكون حسناً أو قبيحاً لأنه حسن أو قبيح بحكم العقل . كما أنه لم يقل أنه حسن أو قبيح بحكم الشرع ، لكنه قال أن الحسن والقبح يرجعان إلى العقل والشرع معاً . فالعمل خير إذا وافق العقل والشرع ، وشر إذا خالف العقل والشرع . وهكذا قاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع

وتوفر الغزالى على بحث الأخلاق فأجاد فى هذا الباب وترك أرقى الآثار وأرفعها شأناً ضمنها كتابه الشهير (احياء علوم الدين) لقد نهج الغزالى فى فلسفة الأخلاق الناحية الدينية من حيث النظر والتقدير والناحية التحليلية النفسية من حيث التناول والوصف والتفسير

والغزالى يجعل للعلم منطقة وللدين منطقة . ولكل مزاياها وأحوالها الخاصة والنفس البشرية تتصل بالمنطقتين ، فهى تتصل بالعالم الحسى عن طريق المعرفة والبرهان وبالعالم الروحى عن طريق الاختبار الشخصى والكشف

ويرى أن السعادة الروحية لا تأتى من الايمان الفلسفى بل بالعمل المؤدى إلى الاتصال بالروح الأعلى . ومن هنا يتبين أن الغزالى حين يتناول الصوفية والروحيات فانه يحررها من سخافات غلاتها ، وحين يتناول الدين فانه يحرره من أطمار الكلاميين ثم « يمزج حيوية الأول بحيوية الثانى ويولد منهما مذهباً روحياً يقبله العقل ولا يدحضه البرهان ... »

وقد أعرض الغزالى عن معرفة هذا العالم عن طريق العقل « ولكنه أدرك المسألة الدينية إدراكا أعمق من إدراك فلاسفة عصره ... » فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين شأن أسلافهم اليونان فاعتبروا أن أمور الدين ثمرة لتصور الشارع ووهمه ، بل هو ثمرة لهواه . واعتبروا الدين انقياداً أعمى أو ضرباً من المعرفة فيه حقائق أدنى من حقائق الفلسفة . وقد عارض الغزالى هذا الرأى واعتبر الدين ذوقا باطنيا لا مجرد أحكام شرعية أو عقائد، بل هو شيء أكثر من ذلك ، وأنه شيء تتذوقه الروح . ويعلق (دى بور) على هذا فيقول « ... ولا يتاح لكل إنسان أن يبلغ فى هذا الأمر مبلغ الغزالى ، والذين لا يستطيعون متابعته إذ يعرج فى مدارج السالكين متخطياً المعارف المكتسبة كلها ، لا محيص لهم عن الاقرار بأن محاولاته فى الوصول إلى الله ليست أقل شأناً فى تاريخ العقل الانسانى من مذاهب فلاسفة عصره ، وإن بدت هذه المذاهب أدنى إلى اليقين ، لأن أصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل ... »

وجاء فى كتاب نهاية الميزان ما يشير إلى أن الشك هو طريق اليقين لأن الشكوك هى الموجبة للبحث ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال . ولم يفت الغزالى أن ينبه فى مواطن عديدة من كتبه إلى أنه : « ... يجب على المعلم أن يتجنب كل ما يثير الشك فى نفوس الضعفاء ، وخص المرشد على الاقتصار مع العامة على المتداول المألوف ... » فهو يرى أن يستعمل الشك بمقدار محدود وهذا المنهج « ... يبين أن الغزالى يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال ... »

والمجال لا يتسع لعرض الآراء المختلفة التى أوردها الغزالى فى كتبه فى الأخلاق والآداب والحقوق والواجبات. ولكن يمكن القول أنه ترك تراثاً ضخماً فى كتبه وتآليفه تجعله من الخالدين وهو يعد بحق إمام أهل البيان فى الأسلوب العلمى والأسلوب الاجتماعى ومزاج من علوم شتى « ... أنضجها البحث وصقلها التفكير وأضفتها تجاربه وشكوكه الفاسية التى عاناها فى نشأته ... »

وأخيراً نعرض لمقام الغزالى عند الغربيين فنقول : كان للغزالى قيمة ومقام عند الغربيين وقد أحلوه المكان اللائق ودرسوا مؤلفاته ورسائله وكتبه وكتبوا عنه المؤلفات الطوال . ومنهم من يتعصب له ويرى فيه واحداً من أربعة . يقول الدكتور (زويمر) : « كل باحث فى تاريخ الإسلام يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم : محمد بن المسلمين والبخارى والأشعرى والغزالى . . » ويرى (دى بور) أن الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام . وكتب (كارادى فو) عن الغزالى وقد أنصفه بعض الانصاف . وهناك رسائل كثيرة كتبت عن الغزالى بالانكليزية والافرنسية والألمانية ، وهى تدل على أنه شغل الباحثين والمستشرقين أمثال الدكتور مولتر ، وما كدونالد ، وسنيفيلد وشمولدز ودى بور والأب بويج وماسينيون وجولدزيهر وغيرهم ، فكان محل اهتمامهم وعنايتهم ، كما تدل على فضله وأثره الكبيرين فى العلوم وخاصة فى العلوم الالهية والصوفية والأخلاق

نابلس — قدرى حافظ طوقان

آلام فرتر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف « جوته » الألمانى .

صور فيها : عواطف الشاب فى وقت نزوعه إلى الحب وولوعه بالجمال واتحاده مع الطبيعة... وقد قال عنها لصديقه (أكيرمان)

« كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن (آلام فرتر) إنما كتبت له خاصة » .

ترجمتها العربية تتفق مع أصلها فى قوة الأسلوب ودقته وأناقته وجماله ... وهى مثال للترجمة الأمينة التى تنقل الصورة والفكرة وما يقوم بهما من الروح والخيال والعاطفة ...

يطلب من مجلة الرسالة وثمنها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد